الموسم 14

8/ الحلقة 195
حرفٌ تصارع الزمن

مقدمة

كل يوم، ولوحدها، تقاوم السيدة الفاضلة فْطّمة برحال، بنضال مستمر، لتؤكد وفاءها لنهج أسلافها في الكفاح من أجل قوت يومها.

لم ترحل، ولم تستسلم مهما شكت ضنكا بدنياها، ومهما قسى عليها الزمان وأشقاها.
وبكفاحها، وحيدةً بعد رحيل رفيق دربها، تعلل روحها بالآمال، وتقاوم ضيق العيش على طريق لا تعتبره صعبا، بل تعتبر الصعب هو الطريق.

استجواب السيد فاطمة برحّال

- "الحياة قاسية ولا أبناء لدي
زوجي توفي منذ ثلاث سنوات
بقيت هنا لوحدي بمعية فتاة ربيتها تؤنسني
أعتمد على بعض الدوم، أو بعض الزيتون البري
المعيشة مضنية يا ولدي
أعاني من عمى بعيني اليسرى
نعيش على الكفاف
أتمنى الخير من الله تعالى
ورحمة مولانا
ونترجى الرحمة منه عز وجل"

من محيط قريتها بودال بأيت بوملال، اجتزت فاطمة سعف الدوم من عراجينها واحدة واحدة، لتعالجها بعناية فعليها تحضيره على شكل رزم قبل حلول يوم السوق.

السيدة فطمة، ككثير من نشطاء هذه البلدة الحُبلى بالطاقات، مثلها في الثبات والمثابرة، مثل نباتات هذا الهامش الصارم المعطاء.

في أعماقها، روح فتية تعيد ما أذبله الدهر من ربيع عمرها الستيني.

استجواب السيدة فاطمة برحال

- "والدتي هي من علمتني هذه الحرفة

لكنها انتقلت الى رحمة الله"

أم البخت، وأحوازها، وبخيراتها وتراثها الطبيعي والثقافي، وخصائص ساكنتها السوسيو اقتصادية؛
من تلك البلادِ الجِنانِ التي يستحيل ألا تُثمَّنَ هباتُ أديمها، أو ألا تُستثمر طاقاتها.

بلاد محظوظة، توجد فيها ألف فرصة للكسب والنجاح؛
لا يمكن إلا أن يحظى أهلها بمزاج المجتهدين، وبروح المبتكرين المتلمسين الطريق نحو توفير حاجياتهم، ونحو كسب رهان التنمية ببلداتهم.

خلال هذا السفر الجديد، سنركز عدساتنا على مناورات أيدي البختيين وهي تمارس فن الحياة،
سنتقصى ما لديهم من مهارات، وكيف يتكسبون اقتداءً بمنهجِ حياةٍ متوارثٍ يضمن سلاسة العيش، اعتمادًا على ما يوفره مجالهم، واعتباراً لما يُلبي حاجياتهم وذوق أهلهم السائرين على هدى موروثاتهم الطبيعية، ومأثوراتهم عن كِرام أسلافهم.

العنوان
حرفٌ تصارع الزمن
فكرة وتقديم
الحسين فوزي

Jingle

بمزرعة صغيرة بقرية تاوريرت أيت بوملال، على بعد بِضع كيلوميترات شمال زاوية الشيخ، ذهبنا لزيارة حرفي لا زال يزاول بعشق دفين، حرفة نكاد لا نصدق صمودها أمام طوافين الحداثة وطواحين زمن المكننة الجارفة لكل موروث قديم.
المحاريث الخشبية التقليدية
في ورشته المفتوحة على بستانه المحادي لمكان إقامته، يشتغل السيد باسو على حرفة ورثها، وتسلمها بأمانة، وتعهدها بصدق من أجداده قبل عشرات القرون.

فهذه الآداة العريقة جزء من هذه البيئة، أداة زراعية رغم بساطتها فهي لم تقلب تربة الأرض فحسب بل لقد قلبت مجرى التاريخ البشري كذلك منذ اختراعها قبل ثمانية آلاف سنة.

استجواب باسو المباركي / حرفي

- "هذه حرفة جدي من والدتي،
كان يمتهنها قبل أن نولد نحن،
لكنه لم يُعلمنا إياها
بل كنا فقط نلاحظ ما كان يفعله.
وخلال سنة 1987، كنت أرعى بالجبل،
وكنت أحمل معي ساطوراً
وأحاول صنع هذه الأداة بواسطته أينما وصلت
فمرة أُوفق ومرة أخفق
إلى أن تعلمت صنعها.
والحمد لله، ها نحن نكسب بسببها قوتنا.
ونحن نشتغل من حين لآخر في أعمال الفلاحة إن وُجدتْ،
وإذا انعدمت نلتجأ إلى الإشتغال في هذه الأشياء المطلوبة التي يُقبل عليها الناس

أنا أعيش من هذه الحرفة
وأُعيل بها عائلتي والحمد لله، رغم ما فيها من مشقة.
- ألا تستطيع أن تستعمل عوداً آخر مسموحاً باستعماله دونما خرق للقانون؟
- لا يوجد عندنا أي خشب مسموح بقطعه أو استعماله.
- كأعواد أشجار الزيتون مثلاً، ألا تستطيع استعمالها؟
- ليس متيناً
- ليس قوياً
- ليس قوياً، فهو قابل للكسر؟
- ألا تُمنح رخصٌ ما؟
- لا يمنحوننا إياها، وهذا هو مشكلنا مع هذه الحرفة.
- هل هو مشكلكم الوحيد؟
- هو مشكلنا الوحيد
في حين أن هذه الأشياء مهمة وليست سيئة
عائدها جيد يحقق معيشة جيدة.
- ألا تنافس الجرارات والآلات العصرية حرفتكم هذه؟
- لا، أبدا، فحرفتنا تتعلق بالمناطق الجبلية
ولا مجال للجرارات فيها
فالناس تستعملها في حرث الأراضي الجبلية وبساتين الزيتون
وهذه أداة ضرورية هنا.
- هل توجد أراضي لا زالت تُحرث بواسطة المحراث الخشبي؟
- بالفعل، فهو ضروري حتى وإن وُجد الجرار.

- حتى وإن كانت الأرض مستوية؟
- حتى وإن كانت كذلك
فنحن نبيع لقرويّ المنطقة وأزيلال وتانوغة
الذين يأتون لشرائها من عندنا.
ولله الحمد، فنحن نكسب قوتنا وقوت أبنائنا
لا ينقصنا شيء و لا يتبقى لنا شيء
هذه هي الحقيقة.

بسم الله
هذا نضعه هكذا.
- هل ستستمر هذه الحرفة في الوقت الحالي؟
- نحن نستمر في ممارستها
وسنبقى مستمرين إن شاء الله إلى أن نصبح عاجزين
فإذا أصبحنا غير قادرين على العمل
سنتوقف مرغمين
لأننا لا نملك أي بديل آخر لنلتجئ إليه.
- ألا تُعلِّم أحدَ أبنائك هذه الحرفة؟
- لدي إبن واحد، وهو لا يزال صغيراً، والباقي فتيات.

أنا أصنع هذه المحاريث من شهر سبتمبر حتى شهر مارس.
- وأين تبيعها؟
هل في الأسواق أم في مكان آخر؟
- أبيعها في السوق
نعم وإذا احتاجها أحد من أبناء الدوار
فإنه يأتي عندي لشرائها إن رغب
وإلا فأنا أبيعها في سوقنا المحلي وليس في أسواق أخرى
- وأين يوجد هذا السوق؟
- هو بزاوية الشيخ"

للوقوف على فضاءات التداول التجاري للبضائع وتصريف المنتجات المحلية لأم البخت، توجهنا صوب السوق الأسبوعي بالمدخل الجنوبي لزاوية الشيخ؛
إنه الملتقى الذي يحتضن المظهر الإقتصادي والإجتماعي لقبائل هذا المجال، وجيرانهم.
ينعقد هذا السوق كل يوم أربعاء ليُمكن المتسوقين من التزود بحاجياتهم الضرورية، ومن تسويق منتجاتهم الفلاحية، أو الصناعية التقليدية.

بعيدا عن باعة الخضر والدواجن وتجار الملابس والأواني الصينية الصنع، وشتى البضائع والمبيعات،
تنتحي السيد فُطّمة برحال، صحبة زميلاتها، مكانا قصيا،
هذا السوق الأقرب البعيد عن سكناها، فرصة ذهبية لصانعة حصير الدوم هذه، وزميلاتها لتصريف منتوجهن ومادته الخام، دون مضايقات.
ربما سيكسبن ما يتزودن به من بعض حاجياتهن البسيطة.

مثيلات فُطّمة في قلة الإقبال على بضاعتهن من طرف جموع المتسوقين، تتقاذفهن إكراهات الحرفة وسمسرات الوسطاء.

السيد محمد حرشاني يكاد يكون وسيطهن الوحيد بين بعض أصحاب البازارات والمستهلكين من أماكن أخرى.

هو أملهن الوحيد غالبا، للفكاك من بضاعتهن، وبأي ثمن يجنبهن العودة إلى بيوتهن خائبات، دون التمكن من كسب دريهمات تكفيهن مؤونة أسبوع كامل في انتظار السوق القادم.

استجواب فاطمة برحال

- "هل هذه المادة وافرة هنا؟
- ليست وافرة، فالعثور عليها صعب وشاق
وهناك الثعابين والشمس الحارقة
ولدي مشكل في إحدى عينيّ
وأنا أكابد بصبر فقط.
- بأية وسيلة تنقلينه؟
- أحمله على ظهري حتى أصل الطريق المعبدة ثم أستقلّ سيارة.
- هل تقصِدين كل أسواق المنطقة لبيع سلعتك؟
- لا، أنا أقصد هذا المكان فقط.
- فهل تربحين من بيعه بعض المال؟
- لا شيء أربحه
ها هي كاسدة ولا أحد يرغب في شرائها
- لماذا؟
هل الناس لا يُقبِلون كثيراً على هذه الحصائر؟
- لأن هنالك حصائر من البلاستيك."

- "سأبيعه لك بأربعة دراهم
- سأعطيك ثلاثة دراهم ونصف
- أربعة دراهم
- يكفيكِ عناداً
بيعي سلعتك
- السلام عليك
كم ثمن هذه؟
- خمسة دراهم
خذها.."

استجواب فاطمة برحال

- " إن لم تبيعي هذه الأشياء، هل تعودين بها إلى البيت؟
- أرُدّها إلى البيت
- إلى أن يحل موعد السوق القادم
- هكذا، إن شاء الله

- كم من مدة وأنت تمارسين هذه الحرفة؟
- منذ أن كنت صغيرة وأنا أمارس هذه الحرفة
قرابة ثلاثين سنة أو ربما حتى أربعين
وأنا الآن أبلغ الستين
- فهل تُوفر لك بعض الأرباح؟
- لا فائدة أجنيها غير العيش على الكفاف
ها هي بائرة والناس لا تريد شراءها."

لقد طال الانتظار بفُطّمة دون تصريف بضاعتها. وعليها أن تُنهي الأمر وتَقنع ببعض الدريهمات.

- "سأعطيك أربعة دراهم
ألا تقبلين؟
- حسناً"

السيدة فطمة رضخت مضطرة لمساومات زبونها فباعت سلعتها،

أربعة دراهم معدودات لا غير، أفضل من لا شيء.
وغادرت تاركة زميلاتها قابعات في مكانهن في انتظار مشتر قد يأتي أو لا يأتي.

في ظل هذا الواقع، غالبا ما يقتنعن في الأخير أن الأربح بالنسبة إليهن أن يقنعن بما قضت به ظروف السوق.

استجواب إيطو الدوش / صانعة حصائر
استجواب ميمونة الطنجي / صانعة حصائر

- "أبنائي يتامى تركهم لي والدهم
فصرت أحش الزرع وأصنع الحصائر
لأعيلهم حتى كبروا
فانشغل كل واحد منهم بحياته وبقيت وحيدةً.
- ماذا تصنعن قبل بيعكن للحصير؟
- تارة نبيع ديكاً
أو نشتغل عند أحدهم في بستانٍ ليوم أو يومين
هذا كل شيء
ونحن نعيش على قدر مستوانا
- بمعنى أنكن تبعن حصيراً واحداً فقط خلال شهر كامل
- نعم حصير واحد فقط
- هل تباع هذه الحصائر على طول السنة؟
أم أنها تباع في أوقات معينة؟
- خلال شهر رمضان هذا مثلاً
لم نبع ولم نشتر أي شيء
- ولا شيء؟
- إطلاقا
- لماذا؟
- لم يأت الوسيط الذي يشتريها بالجملة
هذه السيدة عرضتها للبيع حتى أعياها الأمر
فجمعتها لتردّها إلى البيت
- فهل بعتموها أنتن؟
- ها أنت ترى بأي ثمن بعتُها
لقد بعتها ب70 درهماً فقط
لمجرد أن أتخلص منها فحسب
فماذا عساني أن أفعل؟
هل أحزمها فوق ظهري وأبقى بلا شيء؟

فبأي شيء سأُطعم نفسي؟"

استجواب السيد محمد حرشان / وسيط بيع الحصائر

- "تجارة هذه الأشياء ضعيفة حالياً
فالناس بدأت للتو في الاشتغال بالحصاد والدرس
إلى أن ينتهوا من أشغالهم
فنحن فقط هنا لنَصِل معهم صلة الرحم منذ سنتين أو سنة
بينما هذه الأشياء كانت منسية
نحن نتوصل بالطلبات
ونساعد الناس ونعطيهم الدوم ليشتغلوا
فعادوا إلى الاشتغال
في حين أن هذه الحرفة كانت مزدهرة
لكنها تدهورت بعد ذلك.
فعُدنا وأبرمنا معهم برنامجاً جديداً
وأخبرناهم بأن الناس تطلب هذه الأشياء
فاستأنفوا عملهم.
يُقال بأنها صحية فهي أفضل من البلاستيك
وهذا ما يُخبرنا به من نتعامل معهم
وهم يطلبون حصيراً أبيضاً عادياً
بدون خيوط أو أي شيء آخر
بإمكانك أن تنام فوقها مرتاحاً ومطمئناً على صحتك."

ظروف قاسية، وقُساة يتسببون في هزالة الربح، وكساد البضاعة.
إن هذه الأنشطة الفردية غير المنضوية تحت أي تنظيم جمعوي أو تعاوني، تبقى محرومة من أي سند، محكومةً بالعناء والعجز عن تحقيق الإنتاجية والمردودية اللازمة.
إنها أنشطة تعاني صعوبات تحول دون مساهمتها الكاملة في التنمية الفردية لمزاوليها، وفي التنمية الاقتصادية والاجتماعية لساكنة هذا المجال.

فاصـــــل

وتتعدد نماذج القوى الحية المبادرة بهذا المجال البختي، رغم ضعف مستواها التعليمي وتواضع إمكانياتها المادية.
لرصد تجربة مغايرة في طريقة التدبير بهذه المنطقة، التي راكمت مهارات ترجمها حرفيوها إلى منتجات غدت تراثا محليا متميزا،

انتقلنا إلى أحد أحياء زاوية الشيخ للوقوف على واقع حرفة النسيج التقليدي الأكثر ممارسة داخل جماعة أم البخت.

من بعيد، وبين دروب حي تيفاسورين بزاوية الشيخ، تتناهى إلى أسماعنا أصوات دواسات المناسج الآلية وحركات الأمشاط والمشابك.

داخل ورشتها بالطابق الأرضي، تكافح فاطنة بوسادر برفقة أمها، الصماء البكماء، وابنتيها الجامعيتين، بحماسة من يبحث عن الخلاص في أفضل ما بين يديه.

تصل الليل بالنهار بالهمة الكافية لإتمام طلبات الزبائن، وكسب إخلاصهم على المدى البعيد.

استجواب السيدة فاطنة بوسادر / تعاونية إضوضان وورغ "الأصابع الذهبية"

- "نحن بدأنا العمل بالتعاونية سنة 2011
لم يكن لدينا أي شيء
هذا منزلي، وهناك طابق سفلي
لا نستطيع تحمل تكاليف كراء مقر التعاونية
فالنساء المنخرطات لا يستطعن تحمل التكاليف
والمداخيل لا تسد احتياجاتهن
حين رغبنا في كراء مرآب
استجابة لطلب المديرية لتوفير محل كبير
وجدناه لكن ثمن كرائه تراوح ما بين 3500 و 5000 درهم
لكنه ثمن باهض مقارنة بعائد إنتاج النسيج
لأنها حرفة يدوية
وهي حرفة صعبة"

داخل هذه الورشة التي تسهر عليها السيدة فاطنة، يتم تمرير أسرار ومهارات هذه الحرفة التقليدية للشابتين المتعلمتين العاطلتين عن العمل
إنها تتولى الإشراف على تكوينهما هي ووالدتها، فغدتا سندها الداعم بقوة لترجمة حلمها الطموح إلى إرساء دعائم مشروع تراثي يربط علاقة متينة مع ذاكرة منطقتها وما تتضمنه من محتوى ثقافي وتراثي.

استجواب آسية تغاني

- "بالنسبة لمستوانا الجامعي
فلا علاقة له بهذا الواقع الذي نعيشه

وحيث إننا وجدنا والدتنا تشتغل بهذه الحرفة،
أصبحنا نحن أيضا نمارسها
أولاً لأساعد والدتي
ثم لأنني لم أجد أي شيء لأشتغل فيه
فسوق الشغل مأزوم أصلاً
فكل الطلبات التي قدمتها لم تساعدني في إيجاد أي عمل
ولم يبق سوى أن أساعد والدتي
لأن هذا العمل هو ما مكَّنها من تعليمنا
ووالدتي لا تجد من يساعدها
خصوصاً مع ضعف مستوى هذه الحرفة
رغم أن هنالك أناساً يُقدّرون هذه الحرفة
لاحظتهم من خلال إقامتي لمعارض
أعرضُ فيها مصنوعات والدتي في الرباط
وفي الجديدة والدار البيضاء وأماكن عديدة
منها زاوية الشيخ وتادلة وبني ملال
داخل المعرض هناك أناس تُعجبهم السلعة ويشجعوننا
بينما تجد آخرين يستهزؤون
فعندما تخبرهم بالثمن يردّون بقولهم:
"أهذا الشيء يساوي كل هذا الثمن؟"
فهم يجهلون مدى المعاناة التي تكبدناها من أجلها
ومن أين أتينا بالخيوط والصوف وكل تلك الأشياء.
فيُعلق ساخراً: "أهذا الشيء، وبهذا الثمن؟!"
هناك من يقولها في وجهك
وآخرون تسمعها منهم من وراء ظهرك
بعضهن يتباهى أنهن كن يشتغلن في هذه الأشياء".

لم تستسلم هذه الأسرة المتماسكة لإكراهات جائحة كورونا التي أجبرت عضوات التعاونية الأخريات على البقاء في منازلهن دون عمل.
هذا الطارئ المستجد، نزل على حين غرة لينضاف إلى قائمة متاعبهن وهن يحاولن النهوض بقطاع النسيج التقليدي بمنطقتهن عبر إنشاء هذه التعاونية قبل عقد من الزمن.

استجواب فاطنة بوسادر

- "المشاكل التي نعاني منها مرتبطة بالتسويق

لا نجد آفاقاً لعرض منتوجاتنا
المعارض المنظمة بعيداً عنا لا نتحمل تكاليفها
فقط إن كان هناك معارض تابعة للوزارة فهي تتكلف بكل المصاريف
هذه الحرفة خاصة بمن ليس له بديل
هي فقط لمن يرغب في توفير عيش بسيط لأسرته
لمن يريد مساعدة نفسه
لمن يرغب في تدريس أبنائه
إنها حرفة البسطاء
لكننا نحمد الله عليها
أنا أمية
وهذه أمي
ربتني ولله الحمد
بهذه الحرفة أعيش أنا وأسرتي
اللهم لك الحمد
هذا عمل حلال
فيه بركة بالرغم من المدخول القليل."

استجواب آسية تغاني

- "بعض الناس يتساءلون عندما كنتُ أبيع الحصائر قائلين:
"ما هذا الثمن الذي تطلبينه؟
إنها تستحق أكثر من هذا"
فأردّ عليهم: يا ليتهم يشترون بهذا الثمن فحسب
وأن تباع بالثمن الذي أطلبه."

لقد أنشأت السيدة فاطنة وزميلاتها هذه الورشة بعصامية وبمجهودهن الخاص، وجهزنها بالوسائل والأدوات الضرورية التقليدية الكفيلة بقدرتها على الإنتاج والاستمرارية .

فاطمة الزهراء تغاني

- "الأفكار موجودة
لكن من سيساعدك؟
أو يرشدك، أو يَعِدك بمساندتك؟

نحن نريد أن تستمر هذه الحرفة وليس أن تتوقف هنا.
فنحن نساعد والدتنا من أجل أن تبقى هذه الأشياء للأجيال القادمة.
هذه أشياء جميلة،
فأحياناً، عندما يرى أحدهم صورة لإحدى المنتجات على وسائل التواصل
يُبدي إعجابه
لكننا لا نملك أية وسيلة للإيصال
أو أن ننشر في مواقع لمجموعات كبيرة
فأنت بحاجة إلى هذه المجموعات كي تساعدك حتى تصبح مشهوراً
- نحن بحاجة إلى المواد الأولية أولاً
وقبل أن نمضي لإكمال مشوارنا ومشروعنا
فلا شيء من هذا.
- نتمنى خيراً مستقبلاً، إن شاء الله."

حقا؛ إن المبادرين الشجعان، وإن قلوا، فلمثلهم ترفع القبعات.
هم دوما قلائل،
لكنهم بإقدامهم، نواة كل نماء،
وطاقة كل رقي في جميع الأرجاء.

السيدة إيطّو أوعمو، نموذج مثالي آخر من حمَلَة همّ التنمية بمجالاتهم.
لكن، برؤية أكثر قوة وطموحا وبعداً للنظر، بهذا المجال البختي الفسيح.

التقيناها وهي في طريقها إلى سوق القبيلة، ككل يوم أربعاء صباحا، لتتزود بموادها الخام بشكل رسمي، مثلما تتزود بها لغاية تضامنية من دواوير شتى بهذا المجال.

تتوجه صوب ضالتها، نحو رواق الحبوب.
تصل إلى حيث البضاعة،
تتحرى أجودها،
تساوم،
وتشتري..

في رأيها، المواطَنة إسهام في رقي البلد، وهي شعور بالمسؤولية يتبلور في إنجازات حية لا تعرف التسويف.

ومن القول إلى العمل، جسدت قناعاتها في هيئة تعاونية إنمائية مرتبطة بهاجس حفظ الهوية والذاكرة، في سبيل الإسهام في ازدهار منطقتها، والبلد برمته.

استجواب إيطو وعمّو / مؤسسة تعاونية يامنة

- "هذه تعاونية يامنة لإنتاج المواد الطبيعية،
وقد أسسناها سنة 2015
لكنني كنتُ قبل ذلك مدرِّبة بالتعاون الوطني منذ سنة 1981 تقريباً
وكنتُ أعَلِّم البنات الصناعة التقليدية
ثم جاءت أجيال أخرى من بنات كنا قد علمنا أُمهاتهن.
لكنني أُلاحظ معاناة المرأة القروية
رغم أن المرأة لديها ما تُقدمه
ولا ينقصها سوى من يوجهها
وقد بدأتُ هذه التعاونية بأُجرتي التي أحصل عليها من التعاون الوطني.
بدأتُ أول الأمر بسبع نساء
ووجدتُ أن النساء يرغبن في العمل
وينقصهن فقط من يساعدهن
ثم صرنا نضيف منخرطات أخرى حتى وسّعنا التعاونية
والآن لدينا عشرين امرأة رسمية
كل امرأة بوثائقها الرسمية
وخمسة عشر أخرى مستفيدة
وهن في المناطق الريفية، يُحضِّرن الزميطة فوق فحم الأعواد فقط
ثم نأتي بها إلى التعاونية لكي نضيف إليها مقادير أخرى
ونحن نستعمل المنتوجات الطبيعية من بلادنا.
- ألا تضيفون المواد الحافظة؟
- لا نضيف أية مواد حافظة، فمنتوجاتنا مختلفة كثيراً
لدينا إثني عشر نوعاً من الكسكس
هذا الكسكس الذي نُحضِّره اليوم يسمى الكسكس السباعي
وفيه لوز وباديانة (اليانسون النجمي)
والقرفة والخرطال والشعير والقمح،
وما نسميه أدكّوي {الشقالية}.
فهذا هو كسكسنا لهذا اليوم
ولدينا الكسكس بالخروب وبالسدر
وبمنتوجات طبيعية عديدة
ولا نضيف أية مواد حافظة.
كما نضيف إلى الزميطة اليانسون البلدي واللوز والسمسم.
وننتج كذلك المربّى من الفواكه التي توجد عندنا في منطقتنا.
- هل كل المواد من المنطقة؟

- كلها من منطقتنا
- وكيف تُسوِّقون منتجاتكم؟
- لقد شاركنا في جميع المعارض الوطنية بالمغرب، ولله الحمد
وبالمعرض الدولي بمكناس لخمس مرات
ولدينا شهادة المكتب الوطني للسلامة الصحية للمنتجات الغذائية{ONSSA}
وأقمنا جمعية للشراكة بفرنسا.
- تصدرون إلى فرنسا؟
- نصدّر إلى فرنسا، وقد ذهبت إليها لثلاث مرات،
وإلى الإمارات حيث شاركت في مهرجان الشيخ زايد بأبو ظبي
وبقيت هنالك لمدة شهرين تقريباً
وحصل لنا شرف المشاركة مع 45 دولة
وهو أمر ليس سهلاً
كما بعثَنا المكتب الشريف للفوسفاط إلى إثيوبيا
فأرسلتُ المنخرطات إليه
وتم تكريمي بمعهد الثقافة الأمازيغية بالرباط وبوزارة الصناعة التقليدية
وساعدتنا المبادرة الوطنية ووزارة الفلاحة بالإستشارات الفلاحية
وساعدونا بالمعدّات والحمد لله.
وأنا أفتخر بالمرأة المغربية، خصوصاً بزاوية الشيخ
لأن لديها ما تقدمه.
بعدما كانت لا تكسب حتى عشرة دراهم
والآن أصبحت تكسب الكثير، وتساعد زوجها
رغم أن الأزواج لم يتقبلوا عملهن في البداية
ولكن، بسبب افتخار المرأة بنفسها، واشتغالها بمجهودها
أصبح دخلُها محترماً، فأصبحت تشتري ما ترغب فيه
فهي تساند الرجل.
- تساعد الرجل
- هي تساعده
فأنا لا أعود إلى بيتي حتى الساعة الواحدة ليلاً
وأنا أشكر زوجي الذي ساعدني
لأنه مقتنع بأهمية ما أقوم به لأجل مساعدة هؤلاء النسوة
لذلك لا يمنعني، لأننا نسعى إلى الخير.
ولا نبخل بأي شيء
فأينما أُقيم معرضٌ
فنحن نحضره وإن استدعى الأمر أن ننتقل إليه عبر شاحنة صغيرة."

- "هل هذا هو الكسكس الذي سيُطهى؟
- نعم هو الذي سيُطهى بالبخار"

السيدة إيطو عنوان كذلك، يندرج تحته هم الوقوف إلى جانب نسوة القبيلة، ورفاه كل القبيلة، في طريق الخير.

بمثابرتها، اكتسبت تجارب كبيرة في ميدان العمل الجمعوي المنتج.
قامت بسفريات هادفة في الداخل والخارج مدفوعةً بهاجس إعادة الاعتبار للموروث الثقافي المحلي، وإعادة الروح إلى قطاع الصناعات التقليدية اليدوية الأصيلة.

- "بعدما يُطهى بالبخار نجففه هنا
ضعيه هناك"

استجواب إيطو وعمّو / مؤسسة تعاونية يامنة

- "ما الذي يعنيه الكسكس بالنسبة إليكم؟
- الكسكس هو كل شيء
هو تراثنا وتراث أجدادنا وأبائنا.
الكسكس كما نقول هو البداية والنهاية
فنحن عندما يزداد عندنا ولد، نُحضِّر وجبة الكسكس خلال عقيقته
وعندما نختن له، نُعِدُّ الكسكس
وحينما يتزوج، نُعد الكسكس
وعندما ينقضي أجله، نُعد الكسكس تصدقاً عليه.
وحتى عندما تلتقي بأحد المقبلين على الزواج
تسأله عن الموعد الذي سيدعونا فيه لوجبة الكسكس.
أي أن الكسكس هو الأصل، هو تراثنا المغربي
والمغرب معروف بالكسكس
لكنه الآن، وبعد أن عُدنا به إلى تراثنا
أصبحنا نُحضِّره بمواد طبيعية من منتوجاتنا الطبيعية بالمنطقة
ونحن بنينا هذه الغرفة لغربلته
لأنك بدون جهاز لتجفيفه
فإنك تلجأ إلى هذا الغربال
الذي يفرضه عليك المكتب الوطني للسلامة الصحية للمنتجات الغذائية
بعدها نأتي به لنشره في هذا المكان
ونغلق عليه الباب بهذه الغرفة
فلا يصل إليه الذباب ولا أية حشرات

فيبقى تحت التهوية إلى أن يجف
فنُعيد غربلته مرة أخرى
حينها فقط نقوم بتلفيفه
وهي المرحلة المتبقية الآن."

- "كيف تُفرغونه من الهواء؟
- نحن نطويه هكذا حتى يفرغ من الهواء
هكذا، مرتين أو ثلاثاً
وها هي الآن خالية من الهواء
وهي قادرة الآن على البقاء لمدة سنتين أو ثلاثاً دون أن تتضرر
ها أنت ترى، لقد أفرغناها من الهواء
ثم نضع هذه الملصقة هنا
وها هي هنا."

داخل ورشتها، تُنتج إيطو ورفيقاتها منتجات صحية طبيعية متنوعة من أسلوب لمساتها الإبداعية المستوحاة من صميم تراثها البختي الأصيل.
إنه فن من فنون التخطيط والاستثمار بذكاء.

آمال عريضة، وغايات بعيدة، وقول وعمل جاد منتج.

منتجاتها التراثية، طبيعية صحية وأصيلة من مواد غذائية طبيعية، وزيوت الأعشاب الطبية من خيرات المنطقة.

ولازالت أمانيها تكبر وتكبر، لتتجاوز حدود الإنتاجات المحلية والوطنية، إلى منتجات للتصدير خارج البلاد.

استجواب إيطو وعمّو / مؤسسة تعاونية يامنة

- "ما الذي تتمنونه مستقبلاً

- نتمنى لتعاونيتنا إن شاء الله أن تكبر أكثر
ونحن حاليا نسعى للحصول على شهادة للتصدير
حتى نتمكن إن شاء الله من تصدير منتوجاتنا إلى الخارج
ونتمنى لها مزيداً من النجاح
وأن نتمكن من تشغيل نساء أخريات
حتى يصبح للمرأة الزاويتية شأنها

ونتمنى إن شاء الله أن نتمكن من إيصالهن إلى مستوى أعلى
ونطلب من المسؤولين أن يزيدوا من دعمهن
واليوم، والحمد لله، أصبحت المبادرة الوطنية تدعم وتساعد الشباب
ونتمنى لتعاونيتنا أن تكبر أكثر بإذن الله"

- "هذه هي المرحلة الأخيرة
وهذا هو التقطير الأول
وهذه هي الثانية
أي أننا نحصل من هذه القارورة على اثنتين
حيث إن هذه أكثر تركيزاً
فنخلط بين الإثنين حتى يمكن شربه
لأن تناول التقطير الأول مستحيل
- طعمه قوي.
هل هو جيد؟
- هو قوي بالفعل

- إنه جيد
- هو حار
- هو حار وجيد للأمعاء وفيه منافع كثيرة"

مبادرة السيدة إيطو صورة من صور التفاعل الإيجابي بين الانسان الفاعل ومجاله من منطلق إدراك الدور الذي يمكن أن يلعبه الموروث الاجتماعي والثقافي المحلي، والثقافة المشتركة في التنمية داخل إطار اقتصاديات الثقافة الداعمة للتنمية الاجتماعية والوطنية. وهو نهج في التفهم والإستيعاب، أبداً لا يخيب.

فـــــــاصل

خصوصية التركيبة البشرية التي شكلت النسيج القبلي لاتحادية أم البخت، التي توافدت على مجالها هجرات من جهات مختلفة من الصحراء والمرتفعات الأطلسية ومن القبائل العربية المجاورة، جعلت من هذه المنطقة ملتقى ثقافات وتجارب اتسمت بالتنوع الثقافي، وبالغنى في باب الحرف والصناعات التقليدية التراثية.

من هذه الحرف صناعة الخزف والحدادة والخرازة وصناعة القصب والنسيج التقليدي وصناعة الفحم، وغيرها من الأنشطة التقليدية المتوارثة.

تتمركز هذه الحرف في الأحياء القديمة بمركز زاوية الشيخ.
بينما تعيش حرف أخرى على إيقاع آخر خارجه.

فوق هضبة تعلو وادي أباشا بالجهة الشمالية الشرقية، غير بعيد عن نهر أم الربيع وعن الطريق الرئيسية، يقع مركز تيبيهيت التاريخي الذي لم يُلتفت إلى عراقته ومؤهلاته وأهميته الاستراتيجية التنموية بعد.

مركز مراقبة قديم لحراسة القوافل من النهب، وقع اختيار الفرنسيين عليه فبنوا به مقرا خاصا، مستغلين انفتاح موقعه على الواجهة الجنوبية حيث المرتفعات التي كانت هدفا لتوسيع قواته المحتلة، ومنه مهدوا طريقا وصلوا عبرها إلى جوار ناوور وأغبالة.

مارين عبر هذا الغور المغروس أشجار زيتون، بحثًا عن بعض ذرى هذه الجبال، انتابتنا الحيرة من هدير محرك بعثنا على محاولة استبانة ماهيته والانتهاء إلى مصدره.

على قارعة الطريق، بمنطقة بوسليمان، انتهينا إلى ورشة في الفضاء الطلق من تدبير السيد صالح القرني بالنيابة عن منتجي الفحم بالمنطقة.

- "السلام عليكم
- وعليكم السلام
- أعانك الله
- آمين
- كيف حالك سيدي؟
- بخير ولله الحمد"

هنا يحرق السيد صالح جذوع أغراس الزيتون الميؤوس من عطائه، ليحولها فحماً يزداد أو يقل الطلب عليه محليا ووطنيا، حسب المواسم.

استجواب صالح القرني / صانع الفحم

- "هذه بدأتَها للتو، أليس كذلك؟
- بلى، هو كذلك
- ما الذي وضعته في الداخل؟
- وضعت الأعواد ذاتهم
وضعت الرقاق أولاً ثم وضعت الكبيرة فوقها
أنا الآن أنهيت هذه

سأتركها تتفحم ثم أستخرجها
تعال لنرى بعضها هناك وهي مغطاة بالتراب وجاهزة
لا ينقصها سوى إضرام النار فيها

- هذا نبات الفصة
- نعم إنها الفصة بالفعل
- ها هو التراب الذي نغطيها به
وها هي الآن مُتربة.
- بمعنى أن هذه مثل تلك وقد غطيتموها بالتراب؟
- نعم هذه متربة

وها هو موضع إضرام النار فيها
سنزيل التراب
- تُعدُّون الجمر خارجها أولاً
- نُعِده فوق الأرض ثم نضعه هنا
في الوسط من هذا الموضع
- تتوقف عن الحفر عند وصولك إلى الأعواد
- نعم
الغار لا زال ممتداً إلى الأسفل
- جعلتم غاراً تحتها
- نعم
ها هو، أترَاه
إنه فارغ وقد يصل إلى الأرض
قد يمتد إلى عمق خمسة أمتار
نرمي فيه الجمر وهذا القش.
ثم تملؤه وتغلقه مرة أخرى
وتضع عليه ذلك القش
ثم تعيد العملية في المساء مرتين في اليوم
حتى تتمكن منها النيران بعد ثلاثة أو أربعة أيام"

هذا الحرق ليس اجتثاثا عشوائيا،
إنه حرق يتبعه على الفور غرس جديد قادر بفتوته على إثمارٍ أكثر إنتاجية، وإسهاماً من هذا الفدان في إنتاج زيوت طبيعية يزداد عليها الطلب سنة بعدٍ أخرى.

مجال معطاء بلا مراء، ونشيطون يبلون البلاء الحسن من أجل استثمار مؤهلات هذا المجال بسخاء.
لكن مشكل تنشيط الرواج التجاري والرفع من مبيعات الحرفيين، والاهتمام بأوضاع هؤلاء الحرفيين أنفسِهم، لا زال مطروحاً.

استجواب صالح القرني / صانع الفحم

- "هذا العمل شاق
- نعم هي عملية شاقة ومتعبة
والثمن زهيد.
- كم يساوي ثمن هذا الفحم حالياً؟
- في الوقت الحالي لا يوجد من يقبل شراءه حتى بثلاثة دراهم للكيلوغرام الواحد
- للكيلوغرام الواحد؟
- نعم للكيلوغرام الواحد
- كم من كيلوغرامات ستحصل عليه من هذه الكومة مثلاً؟
- حوالي 12 أو 15 قنطاراً في أقصى الأحوال
هذا عمل صعب، والمتضرر بالدرجة الأولى هو الأجير
- بكم يشتريه الناس في الأسواق حالياً؟
- في الوقت الراهن لا أحد يرغب في شرائه
بسبب ظروف كورونا منذ العام الماضي
بينما قبل كورونا كان ثمنه يصل إلى أربعة دراهم ونصف
والناس تطلبه ولا تجده
وقبيل العيد بعشرة أيام، لم يعثروا عليه حتى بخمسة دراهم
- لأن الناس تستعمله كثيرا خلال عيد الأضحى.
- بالفعل، وحالياً كان مفروضاً أن يباع بهذا الثمن الذي ذكرته لك
- فماذا تتمنى لهذه الحرفة التي تزاولها في المستقبل؟
- ماذا عساني أن أتمناه؟
أنا أمارس هذا العمل منذ 43 سنة
ولا أملك تقاعداً مثلي مثل والدي.
- 43 سنة؟
- 43 سنة ولا شيء وراءها
- منذ أن كنت صغيراً
- منذ كنت صغيراً
لم أدرس، ولم أربح أي شيء
تشتغل مع أحدهم زمناً طويلاً
ثم يستغني عنك مُوَدِّعا إياك

وما لم تشتغل خلال الصباح، فلن يجد أبناؤك ما يأكلون
- لديك أبناء؟
- لدي ثلاثة
- أصلحهم الله
هل يدرسون؟
- هم يدرسون في الوقت الحالي، والحمد لله
وها نحن نكافح من أجلهم جهد المستطاع إلى أن يفتح الله علينا
هذا هو الواقع
أصبحنا في هذه الحرفة مهددون بالتسول أمام المساجد
ما لم ينفعنا أبناؤنا
ولاشك في ذلك، لأن ما يحصل عليه الشخص لا يكفيه
حتى يتمكن من التوفير لأجل مرحلة كبره"

ترى، أهو حُسن التدبير ما ينقُص مزاولة هذه الحرف الجديرة بالاهتمام،
أم إن ما يشاهد هنا مجرد وهم حقيقة يخفي واقعًا آخر لا نعلمه؟
أم إن ما نراه هنا، بالفعل، دخان متصاعد تحته حر ونار.

كسائر البلاد، ظهرت بهذا المجال البختي حياة معاصرة قامت فوق أنقاض الماضي وعلى حساب ما عفا عنه الزمان من معالم الأجداد.

بيد أن فئة من ساكنته النشيطة التجأت إلى تراثها، وإلى كل ما يتصل بماضيها ضدا على هذا التيار الحداثي الجارف.
إما نتيجة للنمو الديموغرافي، وما نتج عنه من ضغط هائل على المصانع الجديدة النائية التي أصبحت عاجزة عن استيعاب القوى البختية العاملة المتزايدة، وإما نتيجة لانعدام التكوين المواكب لهذه الآلات الحديثة وتدبير شأن ميدانٍ تقنيٍ بعيد عن واقعها الريفي النشأة والنمط.
ولم يكن أمامها سوى العودة إلى قراها وأحيائها العتيقة
وإلى حرفها التقليدية الموروثة
وإلى خاماتها ومصادر عيشها الأولى
والى أدواتها البدائية البسيطة.
يصنع منها حرفيوها تحفًا جميلة هي أغلى ما عندهم.

الكهوف المتناثرة بشتى جهات المجال البختي،
أبرز المعالم التي تجاوزها الزمان مع انتهاء أدوارها
خاصة بمركز حاضرة زاوية الشيخ.

لكن الحياة استطاعت أن تتسلل الى بعضها...

رشيد بوصبري / مجموعة الإستكشاف والإستغوار والرحلات الجبلية بزاوية الشيخ

- "زاوية الشيخ معروفة بالمعاصر التقليدية المتواجدة وسط الكهوف
ورغم هذه البنايات العصرية
فلا زالت هنا بعض المعاصر القديمة
وسنرى نموذجاً منها لدى هذا السيد"

بحي تداوت القديم بمركز زاوية الشيخ، كهف تحت منزل من بين كهوف عديدة أخرى جثمت عليها عوادي الزمن وتجاوزتها قوافله فطواها النسيان.
لكن السيد محمد مومني إستطاع أن يواصل نيابة عن والده منحها فرصة أخرى في حياة جديدة باستغلالها في إنتاج الزيوت الوافرة بمنطقته.

إستجواب محمد مومني / صاحب معصرة تقليدية

- "هذه الأشياء تركها لنا أجدادنا
وليس بمقدورنا أن نغيرها.
نحن حافظنا على تقاليدنا، ولا نستطيع تغيير هذه الأشياء
- يبدو أن هذا كهف، أليس كذلك؟
- هذا كهف كبير
ثم قسمناه بذلك الحائط عندما قمنا بتهيئته
- أضفتم الحائط؟
- أضفنا الحائط حتى يُدعِّمه
وتوجد تجاويفه هنا
- هناك غيران أخرى؟
- نعم هنالك غيران أخرى
- هل وجدتَ هذا الكهف معصرةً عندما كنتَ صغيراً؟
- المكان كان في ملكية آبائي وأجدادي
- نعم
- كيف كان الكهف قبل أن تضيف هذا البناء العصري؟
- قبل هذا البناء كان بابه في مكان السلالم
وهو مفتوح إلى الخارج مباشرة
- بمعنى أنك عندما تدخل تجده كله كهفا بدون إضافات
- كان كله كهفاً
وكانت هنا معصرة تقليدية بالعود الضخم الذي يسمى"تاغدا"
- هل لا زال يوجد أثر هنا لذلك العود؟

- ها هو أثره هنا، وأنا لا أريد أن أزيله
- لماذا ينشؤون هذه المعاصر داخل هذه الكهوف؟
ما هو السبب؟
- لأنها ملائمة
فهي باردة وقت الصيف
ودافئة وقت البرد
فتدفئ الزيت بدون أن تحتاج تسخينها حتى تصبح سائلة
والزيتون بحاجة إلى التسخين كما يقول الأوائل، قبل أن يتم طحنه
أضف إلى هذا أن زيت الكهف تمتاز بالجودة
فهي لا تفسد"

الموسم موسم صيف، وهذه المعصرة في إجازة إلى حين.

فكرة عبقرية حولت هذا التجويف الميؤوس منه إلى ورشة انعشت الكهف وأسهمت في إقتصاديات مجاله بسخاء.

غير بعيد عن الكهف-المعصرة، بحي أحمد الحنصالي نفسه،
حرفة تراثية أخرى تصارع سهام العصرنة ووحش الآلة،
إلى جانب حرف يدوية عديدة يتهددها الإهمال وقلة الإقبال.

من داخل كهف آخر، يزاول السيد عبد الكريم السعودي بحماس حرفة صناعة الفخار الضاربة في عمق التاريخ.

استجواب عبد الكريم السعودي / صاحب مصنع فخار

- "هل أنت الوحيد الذي لازال يمارس هذه الحرفة هنا؟
- بالفعل وهناك زميل آخر يشتغل في محل آخر
- أنتما الوحيدان اللذان لا زالا يحافظان على هذه الحرفة هنا؟
- نعم، نحن نحافظ عليها كثيراً
ولدي مستخدمين يعملون معي
ونحن من بقي يزاول هذه الحرفة"

لقد وظف هذا الحرفي بدوره هذا الغار العريق في مزاولة حرفة صناعة الخزف الطيني الأصيل المعروف هنا بتقدّارت.
قوة عزيمة هذا الصانع الغيور على هذا النشاط التراثي،
جعل هذه الورشة المتميزة تنتعش

لتواصل بث الأنفاس في هذه الحرفة
التي يبتكر من خلالها أواني فخارية وظيفية،
وأخرى للزينة من قبيل التحف التي تجذب السائحين.

استجواب عبد الكريم السعودي / صاحب مصنع فخار

- "كادت أن تتوقف في وقت من الأوقات
وكأن هذه الحرفة تراجعت إلى الوراء من قبل
والحمد لله، بعد أن كنا نُصْدِر الدخان الذي يضر بالناس المشتكين
إستحدثنا الفرن الذي دعمتنا به الدولة.
- تقصد أن الفرن القديم هو الذي كان يُصْدِر الدخان؟
- نعم، أما هذا الذي يشتغل بالغاز، فلا.
- هو جيد
- هو جيد في الجودة التي يمنحها للقطع المصنوعة
فهو يُمكِّن من جودةٍ عالية
والحمد لله الأمور على أحسن ما يرام"

خاتمـــــــة

خلال مقامنا بهذه الربوع البختية، وقفنا على بعض ما راكمه هذا العمق الأطلسي المعطاء من تجارب، ومهارات جسدها نشطاؤه من خلال مزاولة حرف وصناعات تراثية لصيقة بهويتهم الثقافية، وخصوصيتهم الاجتماعية.

وهي اليوم تعاني، في ظل معضلة الفوارق المجالية، من متاعب عديدة تحول دون تحقيقها للتنمية المستدامة اللازمة.

فماذا لو تم العمل على احتضان هذه الحرف، ودعم مزاوليها من خلال ورشات عصرية معززة بفضاءات ومعاهد للعرض والتكوين؟
ماذا لو حصل تحفيز هذه القوى النشيطة للإقبال على مزيد من المبادرات الابتكارية، والمشاريع الاقتصادية التي ستعضد الأمن الاجتماعي بمجالها وخارجه؟

أحمد شرماض
10نونبر2021